عاصمة الديار المصرية وماضيها

قلما يخطر ببال انهُ في زمن الدولة الفاطمية منذ الف سنة كان النيل يصل الى جامع المقس المعروف الآن بجامع اولاد عنان وكان في محل شارع كلوت بك وشارع نوبار باشا قرية صغيرة عرفت قبل الفتح باسم ام دنين وبعد الفتح باسم المقس وقد صارت الآن من احياء العاصمة. وكانت الاماكن التي فيها الآن مصر العتيقة وقصر العيني والمنيرة والناصرية وباب اللوق والدواوين والاسماعيلية والتوفيقية وبولاق وشبرا ومحطة سكة الحديد مغمورة كلها بمياه النيل اي ان النيل كان ممتداً من الجيزة الى جامع اولاد عنان فالمحمشة

وقد كان في زمن الفتح مدينة تسمى مصر ذكرها مؤرخو العرب وغيرهم لم يبقَ منها الآن الاَّ اطلال دارسة جنوبي قصر الشمع الذي كان يعرف ايضاً بقصر بابليون فلما استولى العرب على هذا القصر اختطوا مدينة جديدة الى الشرق منهُ سميت بالفسطاط او فسطاط مصر فخربت مدينة مصر التي كانت في زمن الفتح ولم يعد احد من المؤرخين يذكر شيئاً عنها

وليست مصر العتيقة مدينة مصر هذه فان مكان مصر العتيقة كان مغموراً بالماء في تلك الايام لان النيل كان يمر بجانب حصن بابليون من غربيهِ ومصر العتيقة الآن غربي الحصن اي في المكان الذي كان النيل يجري فيهِ

اما حصن بابليون او قصر بابليون ويعرف ايضاً بقصر الشمع فلم تزل آثارهُ باقية الى ايامنا وفيهِ عدة كنائس مشهورة منها كنيسة مار جرجس للروم الارثوذكس وهي مبنية على احد ابراج الحصن وكنيسة مار مرجيوس او ابي سرجه والكنيسة المعلقة فوق باب الحديد وكان مطلاً على النيل. وتاريخ بناء الحصن وسبب تسميتهِ مختلف فيهما فقد ذكر يحيى النحوي في تاريخهِ ان بانيهُ نبوخذنصر وسماهُ بابليون باسم عاصمة ملكهِ بابل وذكر ديودورس الصقلي ان سيسوستريس ملك مصر عاد من احدى غزواتهِ ومعهُ بعض الاسرى البابليين فنزلوا هذا المكان وبنوا فيهِ حصناً واطلقوا عليهِ اسم مدينتهم. وروى يوسيبيوس انهُ بني في زمن كمبيز ملك الفرس وقيل غيرذلك. وكان المصريون يسمونهُ في زمن الفتح «بابليون ان خمي» اي بابليون مصر فان خمي بالمصرية من اسماء مصر. وقد ذكر العرب لهُ اسماء كثيرة منها باب اليون وقصر اليون وبابليون وقصر الشمع. ومن رأي الدكتور بطلر ان كلمة الشمع قد تكون محرفة عن خمي او انهُ سمي كذلك لان الشمع كان يوقد عليهِ في رأس كل شهر كما ذكر المقريزي. وروى المقريزي ايضاً ان الذين بنوهُ من الفرس وقد بنوا فيهِ بيتاً للنار كان لم

يزل في زمن الفتح وهو القبة المعروفة بقبة الدخان وذكر لهُ اسماء كثيرة منها باب اليوم وباب اليون وباب البون بالباء الموحدة . اما البناء الباقي من الحصن الآن فهو من عهد طرايانس قيصر الرومان بناهُ على اثار الحصن القديم سنة ١٠٠ بعد المسيح

اما بناء الفسطاط على ما روى مؤرخو العرب فسببهُ ان عمرو بن العاص لما نزل على حصن بابليون وحاصرهُ نصب فسطاطهُ اي خيمتهُ شرقي الحصن في ارض فضاء بينهُ وبين الجبل فلما فتح الحصن واراد المسير الى الاسكندرية امر ان يقوّض الفسطاط فاذا بيمامة قد باضت في اعلاهُ فابق فسطاطهُ ووكل بهِ من يحفظهُ ومضى الى الاسكندرية وفتحها ثم كتب الى عمر بن الخطاب يستأذنهُ في سكناها فكتب اليهِ لا تنزل بالمسلمين منزلاً يحول بيني وبينهم فيهِ نهر ولا بحر فقال عمرو لاصحابهِ اين تنزل فقالوا نرجع ايها الامير الى فسطاطك فرجعوا وجعلوا يقولون نزلتُ عن يمين الفسطاط وعن شمالهِ فسميت البقعة بالفسطاط لذلك . وللفسطاط لغات ذكرها المقريزي وياقوت وغيرهما منها فصطاد وفستاد وفسطاط وفسّاط وفسّاط وغيرها وفسروهُ ببيت من ادم او شعر او ضرب من الابنية او مجتمع اهل الكورة حوالي مسجد جماعتهم وقالوا كل مدينة فسطاط . وذكر ابن الفقيه ان البصرة كانت تدعى الفسطاط . واللفظة على ما حققهُ الدكتور ولس بدج والدكتور بطلر معرّب فُسّاطن (Fossaton) بالرومية البوزنطية وهي فُسّاطن باللاتينية (Fossatum) وكانت شائعة في تلك الايام ويريد بها الروم المعسكر او المخيّم فاخذها العرب عن الروم وقالوا الفسطاط فيكون الفسطاط مخيم عمرو ورجالهِ

وبعد زمن الفتح بسنوات قليلة انحسر النيل من امام حصن بابليون فسكن الناس المكان الذي انحسرت عنهُ المياه وابتنوا فيهِ وما زال النيل ينحسر والناس تبنيهِ وتبني على ضفتهِ . ويعرف هذا المكان الآن بمصر العتيقة اما المكان الذي كانت فيهِ الفسطاط فاكثرهُ خراب وليس فيهِ من الابنية القديمة الاّ جامع عمرو وهو اقدم الجوامع في الديار المصرية

وبقيت مدينة الفسطاط او فسطاط مصر عاصمة الديار المصرية الى ان بني المكان المعروف بالعسكر حيث الآن جامع ابن طولون بناهُ امراء الجيش العباسي الذي دخل مصر سنة ١٣٣ للهجرة فصار العسكر منزل الامراء وبقيت مدينة الفسطاط للرعية . ثم انشأ احمد ابن طولون القطائع بجانب العسكر سنة ٢٦٣ للهجرة واتخذها الامراء من بعدهِ منازل الى ان انقرضت دولة بني طولون فعاد الامراء ينزلون العسكر وما زالوا على ذلك الى ان قدمت جنود المعز لدين الله الفاطمي مع كاتبهِ جوهر من المغرب فبنى القاهرة وصارت دار الخلافة

واستمر سكن الرعية بالفسطاط والقطائع داخلة الآن في قسم الخليفة وهو احد اقسام القاهرة. وجعل القائد جوهر للمدينة التي بناها سوراً من الطين وانشأ داخل السور جامعاً وقصراً واتخذها محلاً يتحصن به وسماها المنصورية فلما جاء الخليفة نزل بها وسماها القاهرة ويقال في سبب تسميتها على ما ذكر المقريزي ان المريخ كان في الطالع عند وضع الاساس وهو قاهر الفلك فسميت به

وكان لها ثلاثة اسوار الاول من طين وهو الذي بناهُ جوهر القائد كما تقدم والثاني من لبن وابوابهُ من حجارة بناهُ امير الجيوش بدر الجمالي سنة ٤٨٠ والثالث من حجارة ابتدأ في عمارته السلطان صلاح الدين سنة ٥٦٦ وهو يومئذٍ وزيراً للعاضد لدين الله فلما كانت سنة ٥٦٩ وقد استولى على الديار المصرية انتدب لبنائهِ بهاء الدين قراقوش فهدم الاهرام الصغار التي كانت في الجيزة وبنى بها السور والقلعة. واراد صلاح الدين ان يكون السور محيطاً بالقاهرة والقلعة والمقس وفسطاط مصر فمات قبل ان يتم ذلك فاتمهُ الملك العادل وبقي هذا السور الى ايام نابليون ولا تزال آثارهُ الى ايامنا واخرهُ من جهة المقس داخل في بعض الابنية المطلة على شارع الفجالة

وذكر المرحوم علي باشا مبارك في خططهِ ان شكل القاهرة في زمن القائد جوهر كان مربعاً تقريباً ومساحة ارضها ٣٤٠ فداناً وفي سنة ٤٨٦ في زمن وزارة بدر الجمالي بلغت مساحتها ٤٠٠ فدان. فكانت في زمن الفاطميين بين القلعة وبين خليج امير المؤمنين المعروف في ايامنا بالخليج وقد ردم الآن وصار مكانهُ شارع الخليج. ولم تكن القلعة قد بنيت بعد وكانت مدينة الفسطاط او فسطاط مصر لم تزل عامرة والارض بينها وبين القاهرة فضاء وبساتين وقرية المقس على شاطئ النيل الشرقي يفصل الخليج بينها وبين القاهرة ومكان الفجالة ارض تسمى ارض الطبالة وعلى مقربة من بركة الرطل قرية تسمى كوم الريش لم يزل اسمها باقياً الى الآن في احد شوارع الفجالة واسمهُ شارع ابي الريش

اما المقس فسماها العرب في زمن الفتح ام دنين وهي تندونياس التي ورد ذكرها في تاريخ يحيى النحوي ويظن ان ام دنين محرفة عن تندونياس بعد حذف التاء وهي اداة التعريف بالقبطية وسميت بالمقس او بالمكس لانها كانت على ساحل النيل في ذلك الزمن فكانت المراكب تقف امامها وتدفع المكس للجابي ثم حُرّفت وقلبت الكاف قافاً على ما ذكرهُ المقريزي. وذكر ايضاً انهُ كان في المقس برج قرب الجامع يشرف على النيل بناهُ بهاء الدين قراقوش وما زال الجامع والبرج يشرفان على النيل الى ما بعد سنة سبعمائة

وذكر ايضاً ان ارض الطبالة التي بعضها الفجالة الآن كانت غير النيل من غربيها

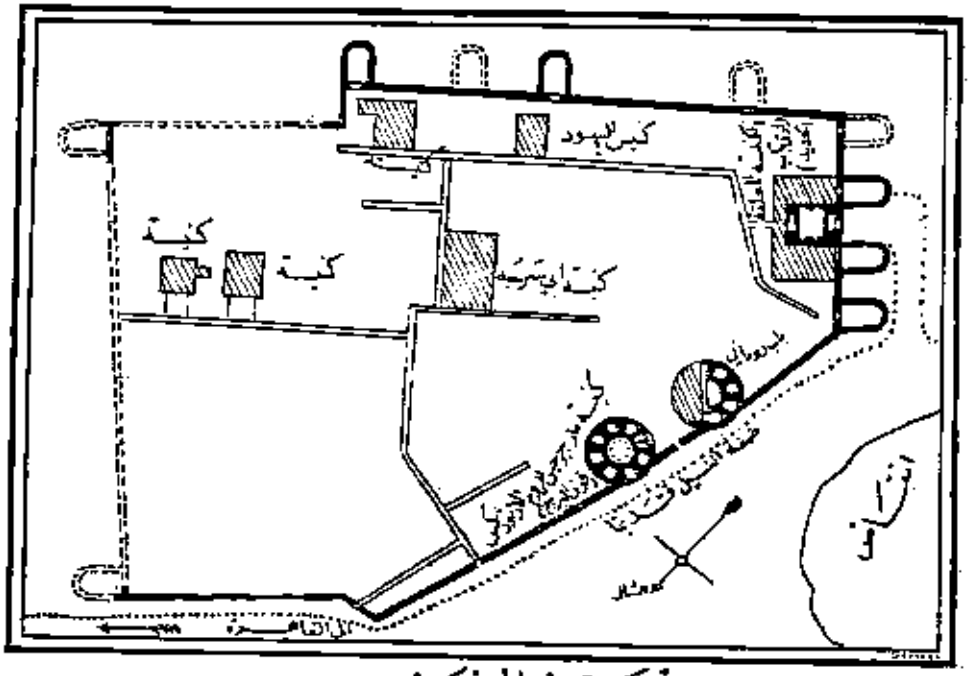

قصر الشمع

القاهرة وضواحيها في زمن الدولة الأيوبية

الاماكن المنقوطة كانت مغمورة بالمياه في زمن الفتح

عند ما يندفع من ساحل المقس الى أن ينتهي الى موضع يعرف بالجرف قرب بركة الرطلي . وكانت ارض الطبالة في ايامه (سنة ٨٠٦ للهجرة) خراباً ليس فيها من العامر الاّ الاملاك المطلة على بركة الرطلي وكان فيها جنينة قال انها اخبث بقاع الارض تباع فيها الحشيشة التي يبتلعها اراذل الناس

وذكر ايضاً انهُ كان لخلفاء الفاطميين منظرة بجوار جامع المقس مطلة على النيل وكانت معدة لنزول الخليفة بها عند تجهيز الاسطول الى غزو الافرنج فتحضر رؤساء المراكب بالشواني وهي مزينة بانواع العدد والسلاح ويلعبون بها في النيل حيث الخليج الناصري تجاه الجامع (ويعرف هذا الخليج الآن بترعة الاسماعيلية)

وفي اواخر الدولة الفاطمية غرق في النيل بين المقس وبر الجيزة مركب اسمهُ النيل فاجتمعت حولهُ الرمال وصار مكانهُ جزيرة كبيرة عرفت بجزيرة النيل ثم تكونت جزر اخرى بين المقس والشاطئ الغربي واخذ الماء ينحسر عن المقس ولا يمر بها الاّ ايام الزيادة فقط ونبت في تلك الرمال البوص والحلفاء فلما كانت سنة ٧١٣ للهجرة رغب الناس في العمارة بديار مصر لشغف السلطان الملك الناصر بها فبنيت بولاق حينئذٍ في جزيرة تجاه بولاق الكرود ثم حفر الملك الناصر الخليج الناصري سنة ٧٢٥ في المكان الذي كان النيل يجري فيهِ قبلاً

وكان بجانب المقس في المكان الذي فيهِ الآن فندق شبرد والابنية الكبيرة التي حولهُ بستان فيهِ منظرة للفاطميين تشرف طاقاتها على النيل وكان اولهُ حيث الآن شارع قنطرة الدكة وآخرهُ الجنوبي حيث شارع بولاق امام التلغراف المصري . وفي زمن الخليفة الظاهر ابن الحاكم بامر الله حفرت فيهِ بركة عرفت فيما بعد ببركة الازبكية ومكانها الآن حديقة الازبكية . وفي سنة ١٢١١ للهجرة بنى محمد بك الالفي قصراً على انقاض قصر قديم في هذا البستان ثم لما تغلب الفرنسويون على مصر جعلهُ نابليون مركز الرياسة لجيشهِ وبعد ارتحالهِ سكنهُ الجنرال كليبر الى ان قتل ثم اتخذهُ محمد علي باشا داراً لهُ ووهبهُ بعد ذلك الى ابنتهِ زينب هانم فعرف باسمها وكان بجوارهِ مدرسة تعرف بمدرسة الالسن انشأها محمد علي وهي الان فندق شبرد المشهور

وقد رسمنا مع هذه المقالة خريطة مصر وضواحيها في زمن الدولة الايوبية اي بعد بناء سورها واعتمدنا في رسمها على خريطة للاستاذ لاين پول في كتاب لهُ اسمهُ تاريخ القاهرة ورسمنا ايضاً حصن بابليون نقلاً عن كتاب فتوح مصر والاسكندرية للدكتور بطلر وجعلنا المقالة توطئة لما سنذكرهُ في العدد القادم عن فتح مصر حسب رواية يحيى النحوي